# الفصل الثاني
# الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أُحُد
# (بعد المعركة)
## المبحث الأول
## الدروس العقائدية

### ١ ـ تحقيق عقيدة التوحيد:

يقول الشيخ عرجون: «كانت غزوة أحد تمحيصًا للمؤمنين، وامتحانًا لقوة إيمانهم، وتحقيقًا للعقيدة التوحيدية في أكمل معانيها، وأرفع مراتبها، وأصفى معالمها، وأصدق مراميها وأهدافها، وأحكم منازلها، وأخلص صورها، وأضوأ منائرها، وأهدى سبلها، وأرشد مراشدها، وأزكى غاياتها ومقاصدها.

إن العقيدة التوحيدية هي محور رسالات جميع الأنبياء والمرسلين، ولم يرسل الله تعالى رسولًا إلا كان قوله لقومه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[المؤمنون: ٣٢]، وعبادة الله تشمل كل طاعة لا ينبغي أن تكون إلا لله جل شأنه، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله تعالى، وإخلاص الدين كله له وحده عز شأنه، وهو يقتضي اختصاص رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ بأعظم درجات الحب والاتباع والتسليم لجميع ما يبلِّغونه عن الله من الوحي، تسليمًا لا يُداخله حرج في النفس ولا يُخالجه شيء من حزازات النفوس وأهوائها ورغائبها؛ لأنهم رسل الله المبلِّغون عنه شرائعه التي تعبَّد بها عباده؛ ولأنهم هم الوسيلة الموصلة إلى رضاء الله تعالى لمتابعتهم في جميع ما جاؤوا به من عند الله، وهم الباب الوحيد الذي يدخل عن طريقه جميع الخلق إلى منازل الإيمان بالله إلهًا واحدًا لا شريك له في تدبير ملكه وملكوته.

وهم الذين يقفون بالمؤمنين على مشارف العبودية لله وحده، يأخذون بحُجَزهم أن يتقذفوا إلى مهاوي الضلالات والهوى، فتتحكم فيهم عواطفهم التي قد تجمح، فتجعل من الرسول أكثر من عبد اصطفاه الله لرسالته وكلفه تبليغها إلى خلقه و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

هذا هو المنهج الإلهي الذي جعله الله تعالى طريقًا لهبط رسالاته وتبليغها، والرسل بعد ذلك وقبل ذلك بَشَرٌ، يعتريهم ما يعتري سائر البشر، وهم معصومون عن الإتيان بأي عمل لا يتفق مع طبيعة رسالاتهم، وهم ـ صلوات الله عليهم ـ متفاضلون في إطار هذا المنهج الرباني، وخيرهم أعمهم رسالة، وأدومهم هداية، وأشملهم شرائع، وأكثرهم يوم القيامة تابعًا، وأقربهم إلى منازل الشهود منزلة، وهي منزلة خاتمهم نبينا محمد ﷺ». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦٠٤-٦٠٥].

**٢ ـ إدراك طبيعة الدين الإسلامي:**

يقول صاحب الظلال: «لقد تمخضت المعركة (معركة أُحُد) والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة في طبيعة هذا الدين الذي هو المنهج الإلهي للحياة البشرية، وفي طريقته في العمل في حياة البشر، وهي حقيقة أولية بسيطة، ولكنها كثيرًا ما تُنسى، أو لا تُدرك ابتداء، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: في حقيقته وفي واقعه التاريخي في حياة الإنسانية، وفي دوره أمس واليوم وغدًا.

إن بعضنا ينتظر من هذا الدين ـ ما دام هو المنهج الإلهي للحياة البشرية ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة! دون اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أية مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم!

وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة، وإنما هو يعمل في حدود الطاقة البشرية، وحدود الواقع المادي للبشر، وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه، فيتأثران به في فترات تأثرًا واضحًا، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له، وقد يكون تأثيرهما مضادًّا في فترات أخرى فتقعد بالناس ثقلة الطين، وجاذبية المطامع والشهوات، دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاهًا كاملًا، حين يرون هذه الظواهر فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها! ـ ما دام هذا الدين من عند الله ـ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته! أو يصابون بالشك في الدين إطلاقًا!

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد، هو عدم إدراك طبيعة هذا الدين، وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.

إن هذا الدين منهج للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري، في حدود الطاقة البشرية، ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي، ويسير بهم إلى نهاية الطريق، في حدود جهدهم البشري وطاقتهم البشرية، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه.

وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة، في أية خطة، وفي أية خطوة، عن طبيعة فطرة الإنسان، وحدود طاقته، وواقعه المادي أيضًا، وأنه في الوقت ذاته يبلغ به ـ كما تحقق ذلك فعلًا في بعض الفترات، وكما يمكن أن يتحقق دائمًا كلما بُذلت محاولة جادة ـ ما لم يبلغه وما لا يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق.

ولكن الخطأ كله ـ كما تقدم ـ ينشأ من عدم الإدراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها، ومن انتظار الخوارق التي لا ترتكن على الواقع البشري، والتي تبدل فطرة الإنسان، وتنشئه نشأة أخرى، لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداده وطاقاته، وواقعه المادي كله!

أليس هو من عند الله؟ أليس دينًا من عند القوة القادرة التي لا يعجزها شيء؟ فلماذا إذن يعمل فقط في حدود الطاقة البشرية؟ ولماذا يحتاج إلى الجهد البشري ليعمل؟ ثم لماذا لا ينتصر دائمًا؟ ولا ينتصر أصحابه دائمًا؟ لماذا تغلب عليه ثقلة الطبع والشهوات والواقع المادي أحيانًا؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه وهم أهل الحق أحيانًا؟

وكلها ـ كما نرى ـ أسئلة وشبهات تنبع من عدم إدراك الحقيقة الأولية البسيطة لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها!

إن الله قادر ـ طبعًا ـ على تبديل فطرة الإنسان ـ عن طريق هذا الدين أو من غير طريقه ـ وكان قادرًا على أن يخلقه منذ البدء بفطرة أخرى، ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة، وشاء أن يجعل لهذا الإنسان إرادة واستجابة، وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقي والاستجابة، وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائمًا، ولا تُمحى، ولا تُبدل، ولا تُعطل، وشاء أن يتم تحقيق منهجه للحياة في حياة البشر عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، وشاء أن يبلغ «الإنسان» من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد في حدود ملابسات حياته الواقعة.

وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحدًا من خلقه ليس إلهًا! وليس لديه العلم، ولا إمكان العلم، بالنظام الكلي للكون، وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود، وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا «التصميم» الخاص!

و«**لماذا؟**» ـ في هذا المقام ـ سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله كذلك ملحد جاد، المؤمن لا يسأله؛ لأنه أكثر أدبًا مع الله ـ الذي يعرفه قلبه بحقيقته وصفاته ـ وأكثر معرفة بأن الإدراك البشري لم يُهيأ للعمل في هذا المجال، والكافر لا يسأله؛ لأنه لا يعترف بالله ابتداء، فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه ـ سبحانه ـ ومقتضى ألوهيته!

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع، لا هو مؤمن جاد، ولا هو ملحد جاد، ومن ثم لا ينبغي الاحتفال به ولا الجد في أخذه!

وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية، فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر، إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية ـ حتى يعرفها فهو مؤمن، أو ينكرها فهو ملحد، وبهذا ينتهي الجدل إلا أن يكون مراء!

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله ـ سبحانه ـ لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنساني بهذه الفطرة؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة، لا تُمحى، ولا تُعدل، ولا تُعطل! ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية؟

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة، ويراها وهي تعمل في واقع البشرية، ويفسر التاريخ البشري على ضوئها؛ فيفقه خط سير التاريخ من ناحية، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى.

هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام ـ كما جاء به محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض في دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية، إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر، تؤمن به إيمانًا كاملًا، وتستقيم عليه ـ بقدر طاقتها ـ وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها، وتجهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهدًا ولا طاقة، تجاهد الضعف البشري، والهوى البشري، والجهل البشري في أنفسها وأنفس الآخرين، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج، وتبلغ ـ بعد ذلك كله ـ من تحقيق هذا المنهج الإلهي إلى الحد والمستوى الذي تطيقه فطرة البشر، على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلًا، ولا تغفل واقعهم، ومقتضيات هذا الواقع، في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها، ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة، وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة، بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الأساليب العملية، وبقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب، وقبل كل شيء، وقبل كل جهد، وقبل كل وسيلة، هنالك عنصر آخر: هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض، ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها، ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج، وثقتها به، وتوكلها عليه.

هذه هي حقيقة هذا الدين وطريقته، وهذه هي خطته الحركية ووسيلته.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يُعلِّمها للجماعة المسلمة، وهو يربيها بأحداث معركة أُحد، وبالتعقيب على هذه الأحداث.

حينما قصرت في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذات نفسها في بعض مواقف المعركة، وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل العملية في بعض مواقفها، وحينما غفلت عن تلك الحقيقة الأولية أو نسيتها، وفهمت أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتمًا بغض النظر عن تصورها وتصرفها ـ حينئذ تركها الله تلاقي الهزيمة، وتعاني آلامها المريرة، ثم جاء التعقيب القرآني يردها إلى تلك الحقيقة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

ولكنه ـ كما قلنا في سياق الاستعراض للنصوص ـ لا يترك المسلمين عند هذه النقطة، بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج، ويكشف لهم عن إرادة الخير بهم من وراء الابتلاء، الذي وقع بأسبابه الظاهرة من تصرفاتهم الواقعة.

إن ترك المنهج الإلهي يعمل ويتحقق عن طريق الجهد البشري، ويتأثر بتصرف البشر إزاءه، هو خير في عمومه، فهو يصلح الحياة البشرية ولا يفسدها أو يعطلها، ويصلح الفطرة البشرية ويوقظها ويردها إلى سوائها، ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان، ومجاهدتهم باليد لدفعهم من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية، وحتى يتعرض في هذه المجاهدة للابتلاء والصبر على الجهد، والصبر على الأذى، والصبر على الهزيمة، والصبر على النصر أيضًا ـ فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة ـ وحتى يتمحص القلب، ويتميز الصف، وتستقيم الجماعة على الطريق، وتمضي فيه راشدة صاعدة، متوكلة على الله.

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان؛ لأنه يجاهد نفسه أولًا في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدًا، وهو قاعد آمن سالم، وتتبين له حقائق في الناس، وفي الحياة، لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه، وبانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبدًا، بدون هذه التجربة الشاقة المريرة.

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة، حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته، ثم تتعرف هي على حقيقة اللبنات التي تتألف منها: مدى احتمال كل لبنة، ثم مدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الصدام.

وهذا ما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يُعلِّمه للجماعة المسلمة، وهو يربيها بالأحداث في «أُحد» وبالتعقيب على هذه الأحداث في هذه السورة، وهو يقول لها، بعد بيان السبب الظاهر في ما أصابها: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [آل عمران]، وهو يقول: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ثم، وهو يردهم إلى قَدَر الله وحِكمته من وراء الأسباب والوقائع جميعًا، فيردهم إلى حقيقة الإيمان الكبرى التي لا يتم إلا باستقرارها في النفس المؤمنة: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران].

وإذن فهو ـ في النهاية ـ قدر الله وتدبيره وحكمته، من وراء الأسباب والأحداث والأشخاص والحركات، وهو التصور الإسلامي الشامل الكامل، يستقر في النفس من وراء الأحداث، والتعقيب المنير على هذه الأحداث». [في ظلال القرآن ١/ ٥٢٦-٥٢٩].

**٣ ـ إدراك طبيعة النفس البشرية:**

يقول صاحب الظلال: «وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية وطبيعة الفطرة الإنسانية، وطبيعة الجهد البشري، ومدى ما يمكن أن يبلغه في تحقيق المنهج الإلهي:

إن النفس البشرية ليست كاملة ـ في واقعها ـ ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء، حتى تبلغ أقصى الكمال المُقَدَّر لها في هذه الأرض.

وها نحن أولاء نرى قطاعًا من قطاعات البشرية ـ كما هو وعلى الطبيعة ـ ممثلًا في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وهم أصحاب محمد ﷺ المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق، فماذا نرى؟ نرى مجموعة من البشر، فيهم الضعف وفيهم النقص، وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ومن يبلغ أن يقول الله عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وفيهم من يقول الله عنهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، وفيهم من ينهزم وينكشف، وتبلغ منهم الهزيمة ما وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٣].

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون، ولكنهم كانوا في أوائل الطريق، كانوا في دور التربية والتكوين، ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر، مسلمين أمرهم لله، مرتضين قيادته، ومستسلمين لمنهجه، ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه، بل رحمهم وعفا عنهم، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، وأمره أن يشاورهم في الأمر، بعد كل ما وقع منهم، وبعد كل ما وقع من جراء المشورة! نعم إنه ـ سبحانه ـ تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك، وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير، ولكنه لم يطردهم خارج الصف، ولم يقل لهم: إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر، بعد ما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، لقد قَبِل ضعفهم هذا ونقصهم، ورباهم بالابتلاء، ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء، والتوجيه إلى ما فيه من عبر وعظات، في رحمة وفي عفو وفي سماحة، كما يَرْبُتُ الكبير على الصغار، وهم يكتوون بالنار؛ ليعرفوا ويدركوا وينضجوا، وكشف لهم ضعفهم، ومخبآت نفوسهم، لا ليفضحهم بها،

ويرذلهم، ويحقرهم، ولا ليرهقهم ويحملهم ما لا يطيقون له حملًا، ولكن ليأخذ بأيديهم، ويوحي إليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا يحتقروها ولا ييأسوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين.

ثم وصلوا، وصلوا في النهاية، وغلبت فيهم النماذج التي كانت في أول المعركة معدودة، وإذا هم في اليوم التالي للهزيمة والقرح، يخرجون مع رسول الله ﷺ غير هيابين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنويه الله بهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

ولما كبروا بعد ذلك شيئًا فشيئًا، تغيرت معاملتهم، وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار، بعد ما كانوا يربتون هنا كما يربت الأطفال! والذي يراجع غزوة تبوك في سورة براءة، ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين، تلك المؤاخذة العسيرة، يجد الفرق واضحًا في المعاملة، ويجد الفرق واضحًا في مراحل التربية الإلهية العجيبة، كما يجد الفارق بين القوم يوم أُحد، والقوم يوم تبوك، وهم هم، ولكن بلغت بهم التربية الإلهية هذا المستوى السامق، ولكنهم مع هذا ظلوا بشرًا، وظل فيهم الضعف، والنقص، والخطأ، ولكن ظل فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله.

إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج، ولا يبدلها أو يعطلها، ولا يُحملها ما لا تطيق، وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض.

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة في إعطاء الأمل الدائم للبشرية، لتحاول وتبلغ، في ظل هذا المنهج الفريد، فهذه القمة السامقة التي بلغتها تلك الجماعة، إنما بدأت تنهد إليها من السفح الذي التقطها منه، وهذه الخطى المتعثرة في الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة في الجاهلية، متخلفة في كل شيء، على النحو الذي عرضنا نماذج منه في سياق هذا الدرس، وكل ذلك يعطي البشرية أملًا كبيرًا في إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامي، مهما تكن قابعة في السفح، ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة، فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر، فهي ليست وليدة خارقة عابرة، إنما هي وليدة المنهج الإلهي، الذي يتحقق بالجهد البشري، في حدود الطاقة البشرية ـ والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير!

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها، ومن الواقع المادي الذي هي فيه، ثم يمضي بها صعدًا كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة، من السفح، ثم انتهى بها في فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان، إلى ذلك الأوج السامق.

شرط واحد لا بد أن يتحقق، أن تُسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج، أن تؤمن به، وأن تستسلم له، وأن تتخذه قاعدة حياتها، وشعار حركتها، وحادي خطاها في الطريق الشاق الطويل».

[في ظلال القرآن ١/ ٥٢٩-٥٣٠].

### ٤ ـ حقيقة الارتباط بين النفس المسلمة والجماعة المسلمة:

يقول صاحب الظلال: «وحقيقة ثالثة تمخضت عنها المعركة والتعقيب عليها، حقيقة الارتباط الوثيق في منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها في أي ميدان، الارتباط بين العقيدة والتصور والخُلق والسلوك والتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبين النصر أو الهزيمة في كل معركة، فكل هذه عوامل أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة.

والمنهج الإلهي ـ من ثم ـ يعمل في مساحة هائلة في النفس الإنسانية وفي الحياة البشرية، مساحة متداخلة الساحات والنقط والخطوط والخيوط، متكاملة في الوقت ذاته وشاملة، والخطة يصيبها الخلل والفشل حين يختل الترابط والتناسق بين هذه الساحات كلها والنقط والخطوط والخيوط، وهذه ميزة ذلك المنهج الكلي الشامل، الذي يأخذ الحياة جملة، ولا يأخذها مزقًا وتفاريق، والذي يتناول النفس والحياة من أقطارها جميعًا، ويلم خيوطها المتشابكة المتباعدة، في قبضته، فيحركها كلها حركة واحدة متناسقة، لا تصيب النفس بالفصام، ولا تصيب الحياة بالتمزق والانقسام.

ومن نماذج هذا التجميع، وهذه الارتباطات المتداخلة الكثيرة حديثه ـ في التعقيب القرآني ـ عن الخطيئة، وأثرها في النصر والهزيمة، فهو يقرر أن الهزيمة كانت موصولة بالشيطان الذي استغل ضعف الذين تولوا بسبب مما كسبوا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾[آل عمران: ١٥٥]، كما يقرر أن الذين قاتلوا مع الأنبياء ووفوا ـ وهم النموذج الذي يُطلب إلى المؤمنين الاقتداء به ـ بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وفي توجيهاته للجماعة المسلمة يسبق نهيه لها عن الوهن والحزن في المعركة، توجيهها للتطهر والاستغفار: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[آل عمران].

ومن قبل يذكر عن سبب ذلة أهل الكتاب وانكسارهم: الاعتداء والمعصية: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [آل عمران].

وكذلك نجد الحديث عن الخطيئة والتوبة، يتخلل التعقيب على أحداث الغزوة، كما نجد الكلام عن «التقوى» وتصوير حالات المتقين، يتخلل سياق السورة كلها بوفرة ملحوظة، ويربط بين جو السورة كلها ـ على اختلاف موضوعاتها ـ وجو المعركة، كما نجد الدعوة إلى ترك الربا، وإلى طاعة الله والرسول، وإلى العفو عن الناس، وكظم الغيظ، والإحسان، وكلها تطهير للنفس وللحياة وللأوضاع الاجتماعية، والسورة كلها وحدة متماسكة في التوجيه إلى هذا الهدف الأساسي الهام». [في ظلال القرآن ١/ ٥٣٠-٥٣١].

**٥ ـ طبيعة منهج التربية الإسلامي:**

يقول صاحب الظلال: «وحقيقة رابعة عن طبيعة منهج التربية الإسلامي، فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث، وما تنشئه في النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث، على النحو الذي يمثله التعقيب القرآني على غزوة أحد، وهو في التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة؛ ليصحح تأثره، ويرسب فيه الحقيقة التي يريد لها أن تستقر وتستريح! وهو لا يدع جانبًا من الجوانب، ولا خاطرة من الخواطر، ولا تصورًا من التصورات، ولا استجابة من الاستجابات، حتى يوجه إليها الأنظار، ويسلط عليها الأنوار، ويكشف عن المخبوء منها في دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة، ويقف النفس تجاهها مكشوفة عارية؛ وبذلك يُمحص الدخائل، وينظفها ويطهرها في وضح النور؛ ويصحح المشاعر والتصورات والقيم؛ ويقر المبادئ التي يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامي المتين، وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة، مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التي تقع للجماعة المسلمة في كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق.

وننظر في التعقيب على غزوة أحد، فنجد الدقة والعمق والشمول، الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة، وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث، ونجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب والنتائج، والعوامل المتعددة الفاعلة في الموقف، المسيِّرة للحادث، كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجًا عميقًا عنيفًا، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، والتعقيب، فهو وصف حي، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ، والإيحاء المثير». [في ظلال القرآن ١/ ٥٣١- ٥٣٢].

**٦ ـ واقعية المنهج الإلهي:**

يقول صاحب الظلال: «وحقيقة خامسة كذلك عن واقعية المنهج الإلهي، فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره في عالم الواقع، مزاولته بالفعل، فهو لا يقدم مبادئ نظرية، ولا توجيهات مجردة، ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته، وأظهر مثل على واقعية المنهج في هذه الغزوة، هو موقفه إزاء مبدأ الشورى.

لقد كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة، التي تعرضت لها ـ وهي بعد ناشئة ومُحاطة بالأعداء من كل جانب، والعدو رابض في داخل أسوارها ذاتها ـ نقول: كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها، لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستندًا إلى رؤياه الصادقة، وفيها ما يشير إلى أن المدينة درع حصينة، ولم يستشر أصحابه، أو لم يأخذ بالرأي الذي انجلت المشورة عن رجحانه في تقدير الجماعة! أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع، وقد خرج من بيته، فرأى أصحاب هذا الرأي نادمين أن يكونوا قد استكرهوه على غير ما يريد!

ولكنه ـ وهو يُقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورى، وأنفذ ما استقرت عليه، ذلك كي تجابه الجماعة المسلمة نتائج التبعة الجماعية، وتتعلم كيف تحتمل تبعة الرأي، وتبعة العمل؛ لأن هذا في تقديره ﷺ وفي تقدير المنهج الإسلامي الذي ينفذه، أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة، ومن تجنيب الجماعة تلك التجربة المريرة، فتجنيب الجماعة التجربة معناه حرمانها الخبرة، وحرمانها المعرفة، وحرمانها التربية!

ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى ـ بعد المعركة كذلك ـ تثبيتًا للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة، فيكون هذا أقوى وأعمق في إقراره من ناحية، وفي إيضاح قواعد المنهج من ناحية.

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته! فهو يعلم أنها لن تستعد أبدًا لمزاولته إلا إذا زاولته فعلًا، وأن حرمانها من مزاولة مبادئ حياتها الأساسية ـ كمبدأ الشورى ـ شر من النتائج المريرة التي تتعرض لها في بدء استعماله، وأن الأخطاء في مزاولته ـ مهما بلغت من الجسامة ـ لا تبرر إلغاءه، بل لا تبرر وقفه فترة من الوقت؛ لأنه إلغاء أو وقف لنموها الذاتي، ونمو خبرتها بالحياة والتكاليف، بل هو إلغاء لوجودها كأمة إطلاقًا!

وهذا هو الإيحاء المستفاد من قوله تعالى ـ بعد كل ما كان من نتائج الشورى في المعركة: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[آل عمران: ١٥٩].

كما أن المزاولة العملية للمبادئ النظرية تتجلى في تصرف الرسول ﷺ عندما رفض أن يعود إلى الشورى بعد العزم على الرأي المعين، واعتباره هذا ترددًا وأرجحة؛ وذلك لصيانة مبدأ الشورى ذاته، من أن يصبح وسيلة للتأرجح الدائم، والشلل الحركي، فقال قولته التربوية المأثورة: «**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لَهُ**»، ثم جاء التوجيه الإلهي الأخير: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[آل عمران: ١٥٩]، فتطابق ـ في المنهج ـ التوجيه والتنفيذ». [**في ظلال القرآن ١/ ٥٣٢-٥٣٣**].

**٧ ـ موقف أكرم رجال هذه الأمة على الله:**

يقول صاحب الظلال: «وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآني على مواقف الجماعة المسلمة التي صاحبت رسول الله ﷺ والتي تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله، وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله.

إن منهج الله ثابت، وقِيمه وموازينه ثابتة، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج، ويخطؤون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوبًا على المنهج، ولا مغيرًا لقيمه وموازينه الثابتة.

وحين يخطئ البشر في التصور أو السلوك، فإنه يصفهم بالخطأ، وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف، ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم ـ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـ ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم!

ونتعلم نحن من هذا، أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج! وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة، وأن يوصف المخطؤون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه ـ أيًّا كانوا ـ وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبدًا، بتحريف المنهج، وتبديل قيمه وموازينه، فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف، فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص، والواقع التاريخي للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم، وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقًا تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة، وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يُحسب على الإسلام، وعلى تاريخ الإسلام؛ إنما يُحسب على أصحابه وحدهم، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه: من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام.. إن تاريخ «الإسلام» ليس هو تاريخ «المسلمين» ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان! إن تاريخ «الإسلام» هو تاريخ التطبيق الحقيقي للإسلام، في تصورات الناس وسلوكهم، وفي أوضاع حياتهم، ونظام مجتمعاتهم، فالإسلام محور ثابت، تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت، فإذا هم خرجوا عن هذا الإطار، أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتًا، فما للإسلام وما لهم يومئذ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم هذه تُحسب على الإسلام، أو يُفسر بها الإسلام؟ بل ما لهم هم يُوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام، وأبوا تطبيقه في حياتهم، وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم، لا لأن أسماءهم أسماء مسلمين، ولا لأنهم يقولون بأفواههم: إنهم مسلمون؟!

وهذا ما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يُعلمه للأمة المسلمة، وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة، ويسجل عليها النقص والضعف، ثم يرحمها بعد ذلك ويعفو عنها، ويعفيها من جرائر النقص والضعف في حسابه، وإن يكن أذاقها جرائر هذا النقص والضعف في ساحة الابتلاء!». [في ظلال القرآن ١/ ٥٣٣].

**٨ ـ تعظيم التوحيد:**

لم نهى الرسول ﷺ المسلمين أن يجيبوا أبا سفيان حين سأل: أفي القوم محمد؟ أفي القوم أبوبكر، وأمر المسلمين أن يجيبوا أبا سفيان حين قال: أعل هبل؟

يقول ابن قيم الجوزية في الإجابة على هذا السؤال: «فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبِشِرْكِهِ تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة مَنْ عبده المسلمون، وقوةِ جانبه، وأنه لا يُغلب، ونحن حزبُه وجُنده». [زاد المعاد ٣/ ١٨١] [غزوة أحد لأبي فارس ٩٣].

ويقول أ/ خلف الله: «وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا**»، كلمة لا يمكن أن تصدر إلا عن رسول الله ﷺ، فقد جمعت عدة معان سامية...

فالشرك دائمًا يكون في الدرك الأسفل، فلا ينبغي أن يعلو أهله على المؤمنين الصادقين حسًّا ومعنى». [غزوة أحد لخلف الله ٩٣].

**٩ ـ حقد الأعداء على الإسلام والمسلمين:**

يقول د/ السباعي: «وفيما فعله المشركون يوم أحد من التمثيل بقتلى المسلمين، وبخاصة حمزة ﷺ عم الرسول ﷺ، دليل واضح على خلوِّ أعداء الإسلام من كل إنسانية وضمير، فالتمثيل بالقتيل لا يؤلم القتيل نفسه، إذ الشاة المذبوحة لا تتألم من السلخ، ولكنه دليل على الحقد الأسود الذي يملأ نفوسهم، فيتجلى في تلك الأعمال الوحشية التي يتألم منها كل ذي وجدان حي، وضمير إنساني.

كذلك رأينا المشركين يفعلون بقتلى المسلمين يوم أحد، وكذلك رأينا اليهود يفعلون بقتلانا في معارك فلسطين، وكلا الفريقين يصدرون عن وِرْدٍ واحد نابعٍ من حنايا نفوسهم التي لا تؤمن بالله واليوم الآخر، ذلك هو الحقد على المستقيمين في هذه الحياة من المؤمنين إيمانًا صحيحًا صادقًا بالله ورسله واليوم الآخر». [السيرة النبوية: دروس وعبر للسباعي ص ١١٧].

«وفي كل عصر يظهر هذا الحقد؛ لأن الكفر ملة واحدة، وما حدث بالبوسنة والهرسك، وما حدث في كوسوفا للمسلمين على أيدي الصرب، وما تم بالشيشان على يد الروس، وما يحدث بفلسطين على يد اليهود، وما يتم بكشمير على يد الهندوس، وغير ذلك من المجازر التي تُنصب للمسلمين والمذابح الجماعية التي تتم على مرأى ومسمع من العالم كله ـ لهو أكبر دليل على ما نقول». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٤١].

**١٠ ـ التمييز والتمحيص ضرورة للفرقان بين الخبيث والطيب:**

يقول أ/ النجيري: «لابد أن يهيئ الله ﷻ من الوقائع والأحداث ما يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، وما يتمحص به ما في قلوبهم من قوة أو ضعف، فالحق ـ جل شأنه ـ لا يمكن أن يترك الصفوف معمية

يختلط فيها الحق بالباطل، ولكن الفصال بين الحق والباطل مطلب إلهي، وقد ختم الله تعالى الآيات في سورة آل عمران في بيان غزوة أُحد بالمقصد الأكبر من المحنة الكبيرة التي تعرض لها الجيش الإسلامي، فقال ﷻ في تلخيص جامع: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

ومقصد التمييز بين أهل الإيمان وأهل الشرك كان واضحًا في بدر، وقد عبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال]، ولكن التمييز يمتد ويتسع في أُحد ليشمل تمييز المؤمن من الكافر من المنافق؛ وليمحص الله ﷻ ما في صدور المؤمنين؛ وليظهر مخبوء صدور الذين كفروا من أهل الكتاب، فيتميز بذلك أولياؤه من أعدائه، وجنده ممن يتربصون بأهل الإيمان الدوائر، فتثبت الحجة الدامغة على الكافرين والمنافقين أنهم أصحاب الجحيم؛ وليرفع الله تعالى في درجات أهل الإيمان ويطهرهم من أخلاطهم؛ وليعلم من ينصره ورسله بالغيب، وتبقى بعد ذلك لنا عبرًا نتدبرها في كل وقت وحين.

فأما التمييز الذي تم في بدر فقد تم في أُحد أيضًا، وهو أول نوع من التمييز، وبه يتحقق مراد الله تعالى من الفرقان بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، كما يقول تعالى: ﴿... وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران].

ثم تعرَّض معسكر الإيمان بعد ذلك لنوعين من التمحيص: أولهما يتميز فيه المؤمن حقًّا ممن في قلبه مرض النفاق، والآخر يتميز به ما في قلب المؤمن من إرادة الآخرة أو الدنيا بعمله.

وقد جرى التميز بين المؤمنين والمنافقين في أُحد بصورة مثالية بيَّنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وهذه الطائفة التي تفضحها الآية هي التي رجعت من الطريق وعلى رأسها عبد الله بن أُبي بن سلول، أما الطائفة التي زلزلتها أحداث المعركة، فقد كشفها الله تعالى بقوله: ﴿... وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران].

ونرى في هذه الآية العناصر المخلخلة اليقين والضعيفة الإيمان التي تتحول مع الحوادث، وتظن أن الله ﷻ يمكن أن يترك أولياءه للهلاك التام والاستئصال على يد أعدائهم، وهؤلاء ينبغي أن يطهر منهم الصف المسلم لأنهم من عوامل الفشل، فالواجب ألا يدخل في صفوف المسلمين في القتال من لم يعد إعدادًا إيمانيًّا عاليًا بجانب الإعداد البدني والفني.

وبالإضافة إلى ما بينته الآيات السابقة في هذا الجانب نعرض لموقفين يوضحان عمل طائفة المنافقين الخسيس لنخر الصف من داخله:

أولهما لرأس المنافقين بالمدينة عبد الله بن أُبي بن سلول، وقد كان له مقام يقومه كل جُمعة من تلقاء نفسه ليقول كلامًا حسنًا يخادع به المؤمنين عما في نفسه، وكان يحركه إلى ذلك شرفه ومنزلته في قومه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدِينَةَ، وَكَانَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولَ ـ كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ ـ لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ كُلَّ جُمُعَةٍ لَا يُنْكَرُ شَرَفًا لَهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي قَوْمِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أَكْرَمَكُمُ اللهُ وَأَعَزَّكُمْ بِهِ، فَانْصُرُوهُ، وَعَزِّرُوهُ وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**، ثُمَّ يَجْلِسُ، حَتَّى إِذَا صَنَعَ يَوْمَ أُحُدٍ مَا صَنَعَ وَرَجَعَ بِالنَّاسِ، قَامَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ، فَأَخَذَ المسْلِمُونَ بِثِيَابِهِ مِنْ نَوَاحِيهِ، وَقَالُوا: **اجْلِسْ أَيْ عَدُوَّ الله لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ، وَقَدْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ**، فَخَرَجَ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ: **وَالله لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بَجْرًا أَنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ**، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِبَابِ المسْجِدِ فَقَالَ: **مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ**، قَالَ: **قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ، فَوَثَبَ عَلَيَّ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَجْذِبُونَنِي وَيُعَنِّفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بَجْرًا أَنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ**، قَالَ: **وَيْلَكَ، ارْجِعْ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ**، قَالَ: **وَالله مَا أَبْتَغِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي.**

**[ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٠٥، والبداية والنهاية ٤/ ٥٣].**

والموقف الآخر كان في استشهاد يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع ﷺ يوم أُحد وبروز نفاق أبيه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ كَانَ يُدْعَى حَاطِبَ بْنَ أُمَيَّةَ ابْنِ رَافِعٍ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ يُقَال لَهُ: يَزِيدُ بْنُ حَاطِبٍ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأُتِيَ بِهِ إِلَى دَارِ قَوْمِهِ وَهُوَ بِالموْتِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الدَّارِ فَجَعَلَ المسْلِمُونَ يَقُولُونَ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ: **أَبْشِرْ يَا ابْنَ حَاطِبٍ بِالجَنَّةِ**، قَالَ: وَكَانَ حَاطِبٌ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَنَجَمَ يَوْمئِذٍ نِفَاقُهُ، فَقَالَ: **بِأَيِّ شَيْءٍ تُبَشِّرُونَهُ؟ بِجَنَّةٍ مِنْ حَرْمَلٍ** (يريد الأرض التي بها المدفن، وكانت تنبت الحرمل)، **غَرَرْتُمْ وَالله هَذَا الغُلَامَ مِنْ نَفْسِهِ.**

**[ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٨٧، المغازي للواقدي ١/ ٢٦٣، تاريخ الطبري ٢/ ٥٣٠-٥٣١].**

أما تمحيص ما في صدور المؤمنين لاختبار صدق التضحية والصبر وبذل النفس في سبيل الله تعالى دون خوف من الموت، وتمكن اليقين بأن المحيا والممات بيد الله ﷻ وتقديره، وأن خيري الدنيا والآخرة بحوله

وتدبيره، ويبين الحق ـ جل شأنه ـ ذلك بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[آل عمران].

كما يبين الحق سبحانه أن من أسباب تحول النصر إلى محنة ونكسة هو ما في بعض القلوب من تعلق بالدنيا وحب لها، وهذا الحب والتعلق اقتضى الابتلاء الذي هو فضل من الله ﷻ يطهر به قلوب المؤمنين، كما يقول تعالى: ﴿... مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[آل عمران].

ويتضح لنا هنا أن المحنة والابتلاء قد تكون تأديبًا للمؤمنين وعظة ورحمة بهم أن ينزل عليهم عقاب آخر بذنوبهم أشد وأقسى.

وكانت المحنة في أحد كافية بلا شك ليظهر حقيقة ما في القلوب، وهذا واضح جدًّا في سردنا لأحداث الغزوة وسير مراحل القتال، ولكن نريد أن نقف هنا مع موقف رجل خرج مع المسلمين وقاتل قتالًا شديدًا حتى قَتل ثلاثة من حملة اللواء الشركي، ولكنه مع ذلك لم تكن نيته من القتال إعلاء كلمة الله تعالى ورفع راية التوحيد، ولكن كانت نيته الدفاع عن أحساب قومه؛ لذا لم يتشرف بالشهادة، فالقتال تحت نية جاهلية أو عمية (غير صريحة في انتمائها لله ورسوله) ليس كالقتال في سبيل الله ﷻ، والرسولُ ﷺ وضح ذلك، فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ**، (وفي رواية: **الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً**) **فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟** قَالَ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». [البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسند أحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

وذلك الرجل هو قزمان الذي أبلى يوم أحد بلاء شديدًا، وقيل: إنه قتل سبعة من وجوه المشركين وكثرت عليه الجراح حتى أثبتته، فأُخبر رسول الله ﷺ بأمره فقال: «**هو من أهل النار**»، وكان بعض المسلمين قد بشره بالشهادة والجنة، فقال: **بماذا أبشر؟ والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي**، ثم لما اشتد عليه الألم أخرج سهمًا من كنانته، فقطع به بعض عروقه، فجرى دمه حتى مات.

ويصدق في قزمان قول الحق: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد ﷺ]، فما في القلوب يظهر عند الموت، ويختم للإنسان بما يكنه قلبه من خير أو شر، وربما يظل الإنسان على عمل الخير ثم تكون نهايته بالسوء كما أخبر ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا**

**وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»**.

[البخاري في التوحيد (٧٤٥٤)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، والترمذي في القدر (٢١٣٧) وغيرهم].

فالنية الصحيحة لابد أن تتوافر للمسلم عند القتال، فلا يقاتل إلا دفاعًا عن دينه، ولا يقف إلا تحت راية إسلامية صريحة في انتمائها، وهنا تسقط في النار دعاوى القتال في سبيل الأمة أو الوطن أو العصبة القومية أو التراب أو الأجيال أو حتى ما يسمى «**الشرعية الدولية**»، فليس للمسلمين إلا شرعية واحدة وهي «**الشرعية الإسلامية**».

وعلى الطرف المقابل لقزمان نجد الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش ﷺ: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: **حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ؟** فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ: مَنْ هُوَ؟ فَيَقُولُ: **أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ**، قَالَ الحُصَيْنُ: فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الأُصَيْرِمِ؟ قَالَ: كَانَ يَأْبَى الإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُحُدٍ، بَدَا لَهُ الإِسْلَامُ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَغَدَا حَتَّى أَتَى القَوْمَ، فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ، فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ فِي المَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: **وَالله إِنَّ هَذَا لَلأُصَيْرِمُ وَمَا جَاءَ، لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ هَذَا الحَدِيثَ**، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ، قَالُوا: **مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟ أَحَرْبًا عَلَى قَوْمِكَ أَوْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ؟** قَالَ: **بَلْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي**، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

[مسند أحمد ٣٩/ ٤١-٤٢ رقم ٢٣٦٣٤، في مسند محمود بن لبيد ﷺ من طريق الحصين بن عبد الرحمن عن أبي سفيان عن أبي هريرة ﷺ به... ورجاله ثقات. وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن].

لقد قذف الله تعالى في قلبه الإسلام لما يعلم فيه من الخير وللذي أراد به من السعادة».

[البلاء الإلهي للنجيري ١٢٤-١٣٤].

### ١١ ـ حمد الله وتمجيده حق على العباد في كل حال:

يقول د/ فيض الله: «لما وضعت المعركة أوزارها، ورجع المشركون بالنصر الذي استَخفَّهم، والمسلمون بالمصاب الذي استأثر بصفوة من كبار الصحابة، الصابرين والمصابرين، الذين تجرَّدوا للدعوة وأعبائها في رضًا وإيمان ـ وقف النبي ﷺ يواسي أصحابه، ويسكب في قلوبهم الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم المطلق لأمره، في غير عتاب، ولا تشكيل محكمة، ولا تقريع ولا تعزير، فحسب الذين خالفوا عن أمره، هذه النتائج المؤسفة المريرة، التي اصطلى بها العامة، وحسبهم ما نزل فيهم من الوحي، حسبهم من العتاب تقريع الإيمان، وتأنيب قلوبهم المؤمنة.

فلما أتمَّ المواساة، قال لأصحابه: «**اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي ﷻ**»، فَصَارُوا خَلفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلتَ، وَلا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ**».

في أعقاب المعركة، المعركة الضارية الخاسرة، يتخذ النبي ﷺ أُهْبَتَه، وينظم المسلمين صفوفًا؛ لكي يُثني على ربه ﷻ.

إنه لموقف عظيم، يُجلِّي إيمانًا عميقًا، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين، الفعَّالِ لما يريد... هو القابض والباسط، والمعطي والمانع، لا رادَّ ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، زَوَى عنهم النصر، وأحرزه عدوهم، وأرجعهم بخسارة فادحة، لكنه ربهم ورب العالمين، هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وليس لهم من الملك ولا من الأمر شيء، وهو الحكيم العليم، والغفور الرحيم، وهو المعبود الحق، وهم العابدون، فليكونوا في مقام العبادة، والتسليم، فذلك هو الإيمان، وسر اليقين.

والمادة والنصر والغنائم تغدو وتروح، فلا النصر بمستمر، ولا الغنائم والأموال مستقرة، ولا يقيم في هذه الدنيا مقيم، ولا أمنها موفور، كل ما فيها غادٍ ورائح، فليسأله: «**النَّعِيمَ المُقِيمَ، الَّذِي لا يَحُولُ وَلا يَزُولُ**».

لقد منحهم الله تعالى أولًا النصر والغنائم، فكانت فتنة لبعضهم جَرَّت إلى شر مستطير، وبلاء كبير، فلما منعهم آخرًا من الأمرين، كلَّفهم ذلك الدماء البريئة، والشهداء الأبرار، والجروح والقروح، وعذاب الروح، فلا يتعلَّقَنَّ المؤمن بنصر أو مادة، ولا يتعلَّقَنَّ إلا برب العالمين، وَلِيَسْتَعِذْ به من شر ما أعطاه ومن شر ما منعه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ**».

لا يحفَل المؤمن إلا بالإيمان، وترسيخه في القلب، وإبراز آثاره في صالح العمل، وتجميل الأعمال به، ولا يتقي المؤمن إلا الكفر الذي يحبط العمل كله، والفسق والمعصية، وهما من رواسب الكفر، وذرائع الخروج عن الهُدى والرشاد.

«**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ، زَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ، وَاجْعَلنَا مِنْ الرَّاشِدِينَ**».

ولئن سبق الشهداء إلى رحمة الله، وَوُوْرُوا في ثرى أُحُد الأشَمِّ، راضين مَرْضيين، فإنَّا على إثرِهم، والموت قافية كل حيٍّ، وهو تحفة المؤمن، فلا يميتنا الله إلا أعزَّة في غير محنة ولا بلاء ولا فتنة: «**اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ**».

أما أولئك الكفرة، الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، ويكذِّبون الرسل، ويقاتلون أتباعهم، ويقيمون السدود والحواجز دون دعواتهم، فالله هو المسؤول أن يقاتلهم بعد قتالنا، وأن يُنزل

بهم بأسه وعذابه، إنه إله الحق، وناصر الدين: «**اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَل عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ، إِلَهَ الحَقِّ**».

للعبودية مظاهر ومواقف، وهذا الموقف من أعظم المواقف التي تسمو بالعابدين، وتُجِلُّ المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء الجميل.

وإنا لا نكاد نجد لمثل هذا الدعاء ومضمونه الأمثل نظيرًا، لا في أعقاب المعارك الرابحة، ولا في أعقاب المعارك الخاسرة، عبر التاريخ.

إنه يصور العبودية في أعلى أشواقها، إنه يصور الموقف الثابت الراسخ الذي يَهَبُه الإيمان أهل العقيدة، الموقف الذي لا تستهويه نشوة ولا نزوة، ولا تنال منه زلة ولا عثرة، وكل شيء في الدنيا إلى زوال، إلا العقيدة ومعطياتها النفسية الرفيعة، فقد تزول الجبال ولا تزول.

إن العقيدة لتربط العابد بالمعبود، وتعلق النفس بالله، وتُوثق قلب المؤمن بربه، وبها يرتبط المؤمن بالعروة الوثقى الدائمة الباقية، التي تنفي عنه تقلبات النفس، وشرود الفكر، وتنقذه من تلاطم الأمواج، وظلمات الحيرة، وتنقله إلى ساحل السلم والأمن والإسلام». [صور وعبر لفيض الله ١٣١-١٣٣].

ويقول الشيخ أبو خوات: «وهكذا يرجع النبي ﷺ من أُحد راكبًا فرسًا وهو وأصحابه جرحى مكلومون، ولكنه ـ في هذه المحنة الشديدة ـ لم ينس ربَّه فأمرهم بأن يصطفوا، وجعلوا يحمدون الله بما هو أهله، معترفين بأن الأمر كله لله يفعل ما يشاء، راضين بقضائه، فقضاء الله خير».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٦٠].

### ١٢ ـ إسلام كثير ممن حضر الوقعة من المشركين من الرجال والنساء:

يقول الشيخ العوفي: «وقد أسلم أكثر الذين حضروا مع المشركين غزوة أحد من الرجال والنساء، فأسلمت هند بنت عتبة هي وزوجها أبو سفيان قائد المشركين في هذه الغزوة، أسلما عام الفتح.

[الإصابة لابن حجر ١٣/ ١٦٥].

وأسلمت أم حكيم بنت الحارث زوجة عكرمة بن أبي جهل، عام الفتح، وفر زوجها عكرمة إلى اليمن، فاستأذنت النبي ﷺ في اللحوق به ودعوته إلى الإسلام، فأذن لها، وأمَّنه، فجاء في صحبتها وأسلم، ثم شهدت فتوح الشام مع زوجها، وشاركت فيها. [الإصابة لابن حجر ١٣/ ١٩٧].

وفاطمة بنت الوليد أسلمت مع زوجها الحارث بن هشام، وهي أخت خالد بن الوليد، عام الفتح، وبايعت، وخرجت مع زوجها إلى الشام. [الإصابة لابن حجر ١٣/ ٨٧].

وبرزة بنت مسعود الثقفي زوجة صفوان بن أمية، أسلمت مع زوجها بعد غزوة حنين.

[الإصابة لابن حجر ١٢/ ١٥٣].

وريطة بنت منبه بن الحجاج السهمية، جاءت مع زوجها عمرو بن العاص، وهي أم ابنه عبد الله بن عمرو، أسلمت أيضًا عام الفتح، فأتت رسول الله ﷺ فبايعته.

**[الإصابة لابن حجر ١٢/ ٢٧٠، وأعلام النساء ١/ ٤٨١].**

وسلافة بنت سعد الأنصارية الأوسية، أسلمت عام الفتح، وهي أم عثمان بن طلحة الذي أعطاه الرسول ﷺ مفتاح الكعبة، وقد قُتل أبوه طلحة وعمه عثمان بن أبي طلحة بأحد مشركان.

وأسلم أبان بن سعيد الذي قتل ابن قوقل في غزوة أحد.

وقد ذكرتُ إسلام هؤلاء النسوة وغيرهم حتى لا يستعجل أحدٌ فيأخذ في سب أحدٍ من الصحابة أو الصحابيات؛ لأنه كان مع المشركين في هذه الغزوة، فقد أسلم خالد بن الوليد، ووحشي بن حرب الحبشي، وأسلم عمرو بن العاص، وأسلم غير هؤلاء أناس كثير ممن كان مع المشركين في غزوة أحد.

قال ابن تيمية ﷺ: «وقد تاب قادة الأحزاب [وأحد]: مثل أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم، بعد أن قُتل على الكفر بدعائهم من قُتل، وكانوا من أحسن الناس إسلامًا وغفر الله لهم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم: «**يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله**». [مجموع الفتاوى ١٦/ ٢٤].

**[غزوة أحد للعوفي ص ٤٦-٤٧، وينظر درس مشابه في غزوة بدر الكبرى بعنوان: من شهد بدرًا من المشركين ثم أسلم].**